**المحاضرةالثانية**

**الأدب المقارن**

**المفهوم النشأة والتطور 02**

**ب- مرحلة نشأة الأدب المقارن**

أثر ظهور الرومانسيّة – في أواخر القرن الثامن عشر- على بلورة فكرة الأدب المقارن، فكانت أكثر إلحاحا على ولادته، لأنّها قلصت من دعائم الكلاسيكيّة التي كانت تحاكي الآداب القديمة الإغريقيّة واللاتينيّة، لذلك فقد دعت إلى تحرير الأدب منها، وإلى الحرية في الفن وذاتية المبدع... كما نادت إلى الإفادة من الآداب الأخرى ودراساتها في لغاتها الأصليّة، وتوجيه النقد توجيها علميا كان من ثمرته ظهور النقد الحديث وتاريخ الأدب الذي أثر على نشأة الأدب المقارن.

ومن بين الذين دعوا إلى الرومانسية نجد "مدام دي ستايل" "Madame de Staell " (1766 – 1817) التي نظرت إلى الأدب في علاقته بالبيئة والمجتمع، وقد هاجرت إلى ألمانيا فألفت كتابها "عن ألمانيا" "de l’Allemagne" وفيه عرفت الفرنسيّين بالأدب الألمانيّ، وأبرزت أوجه الشبه والاختلاف الموجودة بين الأدبين، ورجعت الاختلاف الموجود بينهما إلى اختلاف البيئة والمناخ والنظم الاجتماعيّة[[1]](#endnote-2)3.

كما نجد أيضا "سانت بوف" " Sainte - Beuve" (1804 – 1869) الذي كان ينظر إلى علاقة الأدب بمؤلفه، فكانت أحكامه في النقد أحكاما على شخصيات المؤلفين، فهو يعتمد على الملحوظات الدقيقة في حياة المؤلف، ليبيّن من هو وأثر حالته الطبيعية أو المرضية... وهو ينصح بموازنة النص الأدبي بنظائره حتى تتضح خصائصه....

يتجلى لنا إذن أن تأثير الرومانسيّة في نشأة الأدب المقارن يكمن في الدعوة إلى الإفادة من الآداب الأخرى ودراستها في لغاتها الأصليّة.

وقد تجاوزت كلّ هذه الأشياء النهضة العلمية التي أدت إلى ظهور الأدب المقارن، ومن بين الممهدين لظهور الأدب المقارن بوصفه علما نجد "هيبوليت تين" "Hipolity Taine" وتقوم نظريته على مبدأين: أن التأثير متبادل بين العوامل الطبيعيّة والعوامل النفسيّة التي تتضافر معا على نمو الجنس البشريّ، وعلى الأدب أن يتأثر ببحوث العلم، وقد حصر هذه العوامل في: الجنس (خصائص السلالات البشرية، فكلّ جنس له صفات عضوية خاصة به، فالجنس السامي أو الآري مثلا له صفات عضوية خاصة به، يتميّز بخصائص فكريّة تظهر في إنتاجه العقلي والفلسفي والفني)، والبيئة (الخصائص المكانية، أي ما يحيط بالجنس من عوامل طبيعيّة واجتماعيّة وسياسيّة تؤثر فيه) والعصر (الإطار الزمني الذي يتم فيه حدوث لون ما من الإنتاج الأدبي).

كما نجد أيضا "جاستون باري" "Gaston Paris" من بين الممهدين لنشأة الأدب المقارن، إذ استفاد من دراسة الأساطير والخرافات الشّعبيّة في منهجه، فهو يرى أن الأدب تغذية للحاجات العامة للمجتمع وللميول الشّعبيّة، فبيّن أن الأقصوصات- الفابليو (Fabiaux) - قصة شّعريّة تؤلف لتحكى راجت في فرنسا – قد استمدت عناصر وجودها من الآداب الشرقية، فالآداب تستعين ببعضها البعض لتستجيب للحاجات الاجتماعيّة والشّعبيّة خدمة للمجتمع.

أما "فرديناند برونتيير" "Ferdinand Brunetière" فقد تأثر بنظرية داروين التطوريّة، حيث حاول تطبيقها على الأدب، فبعد تتبعه لمختلف الأجناس الأدبيّة وصل إلى القول أن هذه الأجناس لها وجود خارجي ثابت متميّز، يختص فيه كلّ جنس أدبيّ بمميّزات تميّزه عن غيره، شأنها في ذلك شأن الأجناس الحيوانيّة، كما أن كلّ جنس أدبيّ له زمان خاص به، يولد فيه وينمو ويموت... بهذا ذاعت فكرة الأدب المقارن.

نشأ الأدب المقارن إذن في هذا المناخ العام للقرن التاسع عشر، وتعود نشأته إلى حوالي عام 1827م في فرنسا، حين بدأ "أبيل فيلمان" "Abel Villemain" الذي عدّه الدارسون الأب الروحي للدراسات المقارنة في فرنسا بإلقاء محاضراته بجامعة السربون سماها "استقصاء الأثر الذي تركه كتاب فرنسا في القرن الثامن عشر في الآداب الأخرى، وفي العقلية الأوروبية" وحاول فيها إبراز علاقات الأدب الفرنسيّ بالآداب الأوروبيّة الأخرى. وقد نشر مادته عام 1828 – 1829 تحت عنوان "صورة الأدب الفرنسي في القرن الثالث عشر" في أربعة أجزاء، وقد وردت فيه مصطلحات: "صورة مقارنة"، "دراسات مقارنة"، "تاريخ مقارن"....

وقد دافع "جوزيف تكست" "Joseph Texte" في عام 1895 عن أطروحته حول جان جاك روسو في فرنسا، ليشغل بعدها كرسي الدّراسات المقارنة في جامعة "ليون"، وكانت محاضراته تدور حول تحليل التأثيرات الألمانية في الأدب الفرنسي منذ عصر النهضة. وفي الوقت نفسه كان "لوي بول بتس" "Louis- Paul Betz" يقوم بجهود منظمة في ميدان الدراسات المقارنة، حيث انتهى من كتابة أطروحته التي تتناول "تلقي الشاعر الألماني هاينريش هايني في فرنسا". كما صدرت مجلتين مهمتين في مجال الدّراسات المقارنة يشرف عليهما "بالدن سبرنجر" "Baldensprenger" و"باول هازار" "Paul Hazard" وهما: "مجلة الأدب المقارن" و"مكتبة مجلة الأدب المقارن". ومن أهم الأعلام الذين أرسوا قواعد الدّراسات المقارنة نجد "باول فان تيجم" "Paul Van Tieghem" و"فرنسوا غويار" "François Guyard" و"رينيه ايتامبل" "Rene Etimble.

ومن العوامل والأسباب التي أدت إلى ظهور الأدب المقارن في فرنسا نجد[[2]](#endnote-3)1:

- حرص فرنسا على جعل باريس عاصمة ثقافية لأوروبا، فأصبحت باريس مركز جذب، يأتي إليها الشّعراء والمفكرون والفنانون؛

- إن الفرنسيّين أول من تنبهوا إلى التراث الأدبي المشترك الذي يربط بين شعوب القارة الأوروبيّة...

- إن الدّراسات المقارنة في فرنسا قد تأثرت بأجواء الفلسفة الوضعيّة كما تجلت في دراسات "أوجست كونت"، فوضعت قوانين ثابتة للأدب ثبات القوانين في العلوم الطبيعيّة؛

- بروز المركزيّة الأوروبيّة والبعد الاستعماري في فرنسا، فعلى صعيد المركزيّة الأوروبيّة كانت الدّراسات المقارنة مقتصرة على الآداب الأوروبيّة كالفرنسيّة والانجليزيّة والألمانيّة والايطاليّة والاسبانيّة، أما الصعيد الاستعماري فيتمثّل في حرص فرنسا على خلق ثقافة فرانكفونيّة في مستعمراتها تتأثر بالثقافة الفرنسيّة؛

- نمو حركة الترجمة في اللّغات الأوروبيّة ؛

- انتشار الصحف والمجلات التي ساهمت في تبادل الأفكار.

ولم «تلبث مبادئ هذا العلم أن نضجت وافتتح عهد التدريس النظامي للأدب المقارن في الجامعات الغربيّة منذ سنة 1896، حين أنشئ كرسي للأدب المقارن بجامعة السوربون بفرنسا. والآن لا تكاد تخلو جامعة من الجامعات في العالم من دروس أساسية فيه»[[3]](#endnote-4)2 أصبحت كلّ الجامعات تهتم به لأهميته العلميّة والمعرفيّة.

**2- مقومات البحث المقارن**

للدّراسات الأدبيّة المقارنة مقوّمات أساسيّة، إذ لا يمكن للباحث المقارن أن يبحث في هذا الحقل المعرفيّ دون أن يكون على دراية بها، فهي بمثابة شروط وعدّة له، تساعده على المقارنة، من بينها نجد:

1- **الدّراسات التاريخيّة**: على الباحث أن «يتجهز بثقافة تاريخية كافية، تمكنه من وضع الأحداث الأدبية في إطارها التاريخي. لذا كان مستحيلا على بول هازار درس "الثورة الفرنسية والآداب الايطالية" (1910) لو لم يعرف جيّدا تاريخ فرنسا وايطاليا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر». أي على الباحث أن يتزود بالثقافة التاريخيّة سواء كانت ثقافة تاريخيّة خاصة ببلده، أم ببقية البلدان التي أخذ منها النصوص للمقارنة «فصلّة العرب بالفرس مثلا –على المستوى الأدبيّ والثقافيّ في عمومها- لا يمكن أن تبحث إلا في ضوء الصلات التاريخية العامة منذ الفتح الإسلامي لفارس، بل حتى قبل هذا الفتح، حيث بدأت هذه الصلات منذ العصر الجاهلي، وكذاك صلّة العرب بالغرب لا يمكن أن تفهم أو تدرس إلا في ضوء حدثين كبيرين: أوّلهما: فتح المسلمين للأندلس... وثانيهما: الحروب الصليبية...». أي يُطلب من الباحث أن يكون على علم واسع بأكبر قدر ممكن بتاريخ الآداب المؤثرة وتاريخ الآداب المتأثرة.

**2- معرفة اللّغات**: على الباحث أن يعرف لغات أجنبية حتى يتمكن من البحث عن موضوعه في لغته الأم، وبما أن معرفة كلّ اللّغات أمر مستحيل، فعليه أن يعرف لغة واحدة على الأقل خارج نطاق لغته القومية[[4]](#endnote-5)3 لكي يغوص في أعماق النصوص، لأن هناك جوانب لا يمكن أن تُفهم إلا من خلال لغة النص كبلاغته وأسلوبه وإيقاعه... ففهم النصوص وتذوقها يستدعي «معرفة اللّغة التي كُتبت بها النصوص المراد مقارنتها... لابد إذن من إتقان اللّغة الأجنبيّة التي كتب بها النص الأجنبيّ إذا أراد المقارن أن يغوص بنفسه في أعماق النص ويعرف خباياه.

3**- الترجمة:** بما أن إجادة جميع اللّغات أمر مستحيل، فإن الترجمة تساعد الباحث في دراساته، إذ تعرفه بكلّ الأعمال التي أنجزتها مختلف الأمم. و«تقدم الترجمات المباشرة – أي تلك التي تتم من النص الأصلي- ضمانات ولكنّها لا ترقى بطبيعة الحال إلى منافسة هذا النص... لقد استطاعت بعض الترجمات أن ترقى بروائع أدبيّة في لغتها الأصليّة إلى مستوى روائع أدبيّة في لغة أخرى وتراث آخر، ولكن هذا لا يغني عن الرجوع إلى النص الأصلي» فالترجمة إذن تلعب دورا مهما، لكن على الباحث أن يستعملها في حذر شديد.

4- **الإحاطة بالآثار الأدبيّة الكبرى في العالم** كالإلياذة والأوديسة، ورسالة الغفران، والكوميديا الإلهية، والشاهنامة، ومسرحيات شكسبير... وعليه أن يكون ملما بمختلف العلوم التي تعينه على فهمه وتذوقه من نحو وصرف، وعروض، وفقه، ولغة، وبلاغة، ونقد، وفلسفة، وعلم الاجتماع، والأديان....

**5- الرّحلة**: على الباحث في الأدب المقارن أن يقوم برحلات إلى مختلف البلدان لمعرفة عاداتها وتقاليدها، فهي «عمل مفيد في دراسة الأدب المقارن لأن الاتصال بالشّعوب يفتح آفاقا للفهم لا تتهيأ من دراسة الكتب وحدها، وتساعد هذه الرحلات على إدراك المزاج الشخصي لشعب من الشّعوب والعادات والميول التي تتحكم في تفكيره واتجاهاته فتجعل فنا من فنون الأدب يروج عنده ولا يروج عند غيره من الشّعوب».

**6-** على الباحث أن يعرف كيف يجد معلوماته، وكيف يهتدي إلى مصادر ومراجع بحثه، فعملية التأثر والتأثير تقتضي وسائط يتم عبرها عملية تبادل مختلف الظواهر الأدبيّة، أي عليه أن يكون على دراية بأدوات ومجالات البحث، منها:

**أ- المؤلفون والأفراد (الوسطاء)** : فالأدب المقارن يعالج تأثير كاتب في آخر، أي الصلات الموجودة بين الكاتبين أو الكتاب، من هنا تبدأ مهمة الباحث المتمثّلة في الكشف عن هذه الصلات وتحديدها زمنا ومكانا للوصول إلى إمكانية التبادل، وقد يغني عن ذلك اعتراف صريح من المتأثر بأنه أُعجب بأفكار الكاتب الأجنبي ومن ثمّ قلّده. ويعد الأفراد وسطاء بين بلدهم والبلدان الأجنبية، «حيث يمكن لفرد أو لمجموعة من الأفراد القيام بالوساطة بين أمتهم وأدب أمة أخرى، بحيث يعرفون أبناء أمتهم بهذا الأدب الآخر الذي قيضت لهم فرصة الاتصال به عن قرب، إما عن طريق إقامتهم لفترة طويلة في البلد الذي يعرفون مواطنيهم بأدبه، أو إجادتهم للغة هذا الآخر وقراءاتهم المتوسعة فيه».

**ب- الكتب والمؤلفات**: إن «للكتب والمؤلفات عموما دورا أساسيا في توثيق الصلات بين الآداب العالمية بعضها ببعض، ودورها أكثر أهمية من دور الوسطاء لأن الكتب أكثر شيوعا وأسرع تأثيرا... ومثل كتب المقالات الأدبية والنقدية التي تكتب أو تترجم للتعريف بأديب أجنبي أو أدب أجنبي بشكل عام...» أي الكتب بمختلف أنواعها، والموسوعات، والفهارس، والقواميس والآثار النقدية، والترجمات، والمجلات، والجرائد، وقصص الرحلات وروائع المسرح الأجنبيّ... وعلى الباحث أن يتتبع أحدث ما صدر في الأدب المقارن من نشرات وعناوين...

1. [↑](#endnote-ref-2)
2. [↑](#endnote-ref-3)
3. [↑](#endnote-ref-4)
4. [↑](#endnote-ref-5)